العرب
الأربعاء 2020/04/01
السنة 42 العدد 11664

صدمة كورونا: انكفاء العقل الإسلامي إلى الدعاء

لماذا يختفي الإسلام العلمي ويزدهر الإسلام السياسي والفقهي التبريري

ينحصر الجدل بشأن المسألة الدينية وفايروس كورونا في فتوى إغلاق المساجد من عدمه، وفي التنقيب عن الأحاديث والأدعية التي تستبق العالم بآلاف السنين في توقع الجوائح والتوقي منها. وكان واضحا أن "صدمة كورونا" كانت صدمة شبيه بصدمة عصر النهضة حين استفاق العرب والمسلمون على الحداثة الغربية، ووجدوا أن الحل في اقتداء طريق الغرب بحثا عن "العناصر المادية" للحضارة، والانكفاء على الذات في البعد الروحي، وهي الازدواجية التي تظهر دائما مع كل صدمة جديدة.

علاج بالتعاويذ

مختار الدبابي
كاتب وصحافي تونسي

تراث كبير من الأدعية و"الروشتات" الروحانية في مواجهة فايروس يتفشى في العالم، هذا كل ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية طيلة أربعة عشر قرنا. فمن أين يأتي التعالي الديني الذي يملأ حياتنا اليومية، وهو تعال يقوم على ادعاء امتلاك الحقيقة وتصنيف الشعوب الأخرى كشعوب ضالة وجب تقويمها بالسيف، وهو ما قاد إلى ظهور الحركات الإسلامية المتشددة التي تمارس القتل والتفجير باسم الدين، وتحت عنوان الجهاد، وحتى الحركات التي تتبرأ من توحش القاعدة وداعش، فهي تتبرأ من باب المناورة.

"أمة اقرأ" تكتفي بالتصدي للفايروس القاتل بالدعاء، فيما تنتظر من أمة "الكفر والضلال" أن تنتج الدواء القادر على إنقاذها، فضلا عن أنها تتوسل للحصول على أدوات الوقاية سهلة الإنتاج من الصين وأوروبا.

وكشفت أزمة كورونا أن الثقافة العربية الإسلامية ما تزال على الهامش، وأنها رغم التطور المادي فهي تعيش في الماضي. ليس فقط المواطنون العاديون الذي باتوا أسرى الأئمة والدعاة الغارقين في كتب الماضي، ولكنْ أيضا جزء كبير من الدارسين على أعلى مستوى ومن يعيشون ويعملون في مؤسسات ذات قيمة بالغرب.. جميعهم يبحث في الماضي لتفسير المستقبل.

ويدفع الشعور بالتموقع في الهامش داخل حضارة التكنولوجيا المتقدمة العرب إلى وضع الحلزون الذي لا يرى شيئا سوى ذاته، ولذلك بدأ العامة والمثقفون الذين اخترقتهم أفكار الموت، في البحث داخل النصوص القديمة للإجابة عن تحدي عام 2020.

وأفتى بعضهم بأن القرآن قد تحدث عن فايروس كوفيد19- المستجد، في سورة المدثر في قوله تعالى "عليها تسعة عشر" (مع أن الآية تتحدث عن عدد خزنة جهنم)، وأن آية "وما يعلم جنود ربك إلا هو" يقصد بها كورونا كعقاب أرسله الله للصينيين. فيما عاد آخرون إلى كتب السابقين بحثا عن إشارات إلى الأوبئة وتأويلها على أن الحضارة العربية الإسلامية كانت سبّاقة في التعاطي مع الجوائح.

وفضلا عن أصوات المقرئين والأدعية والتكبير في المساجد، فإن مجموعات صغيرة في تونس انطلقت في أكثر من ليلة وفي ظل حظر التجوال مرددة "الله أكبر" وحاثة الناس في الأحياء الشعبية على الانتظام معها في "حفل تكبير" معرضة أرواح المئات للخطر. ورأينا كيف تحدى وكلاء رجال الدين الشيعة الإجراءات الحازمة لمنع انتشار الفايروس بإغلاق المزارات، معتبرين أن هذه الإجراءات تمس من الخوارق التي يتولى من خلالها الأئمة شفاء المرضى بما في ذلك المصابين بفايروس كورنا.

هروب إلى الغيب

نشطت في الحجر الصحي الإلزامي الدعوات إلى التدين، وترديد الأدعية والأحاديث، وإن كان الأمر عاديا لأن الإنسان في المحن يؤوب إلى الروحانيات بحثا عن السكينة. ولا يقف الأمر، هنا، إذ يسود اعتقاد أن العالم تتم معاقبته بسبب الكفر والفجور والتعدي على الدين، فالصين أصابها الفايروس لأنها "تعتقل مليون مسلم وتمنعهم من أداء الصلاة"، فيما أوروبا تدفع ضريبة "بعدها عن الدين".

وتنشط في وسائل التواصل الاجتماعي عمليات نشر فيديوهات عن تلاوة القرآن في الكونغرس، أو سماع الأذان في شوارع إيطاليا، كما لو أن الغرب قد تم فتحه وأعلن إسلامه بسبب كورونا. لكن السؤال لماذا يتمدد هذا الفايروس بين العرب والمسلمين، مع أن غالبيتهم متدينون ومواظبون على الصلاة والصوم والحج والعمرة.

> ميراث طويل من إنتاجات المسلمين في مبحث الجوائح لم يخرج عن دائرة إتقان صيغ الدعاء والتضرع، دون أي بحوث علمية

إن الأمر لو كان عقابا من الله لكان المسلمون أولى به، فكثير منهم لم يعرف من التدين سوى تكفير الآخرين، كما أنهم حوّلوا الدين إلى أداة تقاتل بينهم وأداة قتل للأبرياء في أماكن كثيرة، وإلى الآن يبدو تبرؤهم من تلك الأفعال مجرد مناورة بعد أن فشلوا في بناء تفكير إسلامي عقلاني ومدني متسامح ومنفتح على الآخر يستطيعون من خلاله النأي بالنفس عن تفسير مشترك تتبناه تنظيمات داعش والقاعدة والإخوان، ومناهج التدريس الرسمية في دول عربية وإسلامية ذات ثقل ديني بالرغم من محاولات "فك الارتباط" ولو على مستوى الخطاب السياسي.

إن الهروب إلى الغيب بهدف تبرئة الأمة المتكاسلة في مواجهة الأخطار الصحية أمر مشترك بين المسلمين، دولا ومنظمات وأشخاصا، وهو ما تعكسه إطلالة سريعة على الفضائيات أو تقص للمواقف على مواقع التواصل الاجتماعي، ما يجعل الحكم عاما وليس فيه أي استثناءات: وهو أن العالم الإسلامي بتلويناته المذهبية وجماعاته يواجه الجوائح بالدعاء والهرولة إلى الغرب بحثا عن المساعدة.

ولعل أبلغ توصيف لهذه الاتكالية هو نصيحة اتحاد علماء المسلمين، الواجهة الدينية السياسية لجماعة الإخوان المسلمين، التي حثت الناس على الدعاء، وخاصة "زيادة البحث في المسائل الفقهية"، بدل البحث العلمي للوصول إلى الدواء.

وبالنتيجة، فإن ميراثا طويلا من إنتاجات المسلمين بكل أطيافهم في مبحث الجوائح لم يخرج عن دائرة إتقان صيغ الدعاء والتضرع إلى الله، دون أي مباحث علمية اللهم ما تعلق بأسباب ظهورها كجزء من منظومة العقاب التي تحسب على الله عز وجل، وهي أقرب إلى التقوّل عليه، وتهدف إلى التنفيس عن العجز في اجتراء أساليب علمية للتصدي لهذه الأوبئة.

تغييب العلم

تثار الكثير من الأسئلة عن الجامعات في العالم الإسلامي، التي ترصد لها ميزانيات كبرى، ماذا تفعل ولماذا تعجز عن تحقيق ولو سبق صغير في مواجهة الأوبئة، إذا سلمنا بسردية نجاح الحضارة العربية الإسلامية في قرون أولى بتقديم منتج علمي بنت عليه أمم أخرى تقدّمها الحالي.

ليس هناك شك في أن العالم الإسلامي، وخاصة الدول الثرية، ينفق بسخاء على الجامعات ذات الاختصاصات العلمية، لكنها لم تخرج في غالبها كفاءات علمية محلية ذات تأثير، إما بسبب عقلية التوظيف التي تسيطر على كثير من الشبان المتخرجين سنويا، وإما بسبب غياب الاهتمام بالبحث العلمي في سياق إستراتيجية وطنية كما تفعل الدول المتقدمة.

وعقلية الاجترار هي نفسها العقلية الفقهية القديمة التي كانت تحض على الشروح والتفاسير بدل النقد والاجتهاد كأرضية ضرورية لأي إضافة فكرية، وهو ما تلعبه الجامعات الدينية في العالم الإسلامي، وهي جامعات تحظى باهتمام خاص وتوضع لها استثمارات كبيرة من أجل إعادة إنتاج الفكر الإسلامي القديم الذي تم إنتاجه في مسار الاجتهاد الشخصي للصحابة والتابعين وتابعي التابعين في العلاقة بالنص، أو بالميراث السلوكي والشفوي للرسول الكريم محمد (ص).

ويقتصر دور العلماء هنا على إعادة تدقيق المتون والكتب المرجعية للأجيال التي سبقت، وإضافة شروح حولها، والنبش في أفكار سابقة للتدليس على صدقية تلك المدونات. وبالنتيجة فإن الأموال التي تنفق على هذه الجامعات، من أبواب مختلفة بعضها رسمي، وكثير منها مجهول، تخصص لإعادة إنتاج أفكار قديمة، وعقد مؤتمرات للترويج لأفكار وفتاوى أسست لظهور القاعدة وداعش، وإن كان المنظمون يظهرون عكس ذلك مناورة أو في مسعى إلى نزع الصفة الدينية عن تلك الجماعات التي هي نتاج طبيعي للفكر الإسلامي.

لكن الموروث الذي يجري تدريسه والاحتفاء به على نطاق واسع أغلبه يتمركز حول فقه ازدهر في فترة العصور الوسطى وفي الأزمات. فقه بوجهين الأول، التسليم بالأمر الواقع وإنقاذ النفس، والثاني الحثّ على السيف لإثبات الذات وحسم الخلافات. وظهر هذا الفقه في فترات متباعدة، لكنه ظل بنفس الهوية التي أسس لها ابن تيمية، أو لاحقا عن طريق الفرق الصوفية زمن الاستعمار، ثم ما بات يعرف الآن بالسلفية بمختلف ألوانها، ثم جماعات الإسلام السياسي الأخرى المتقاتلة تحت مسوغ الفتاوى.

وأفرز هذا الفقه مدرستين في الإسلام السياسي. الأولى تنتصر للسلامة الشخصية وتضفي شرعية على الواقع، وتلجأ إلى النص الديني (قرآن وسنة) لإثبات أن مهمة التغيير والقيادة يختص بها الحاكم، وتعتقد أن دور الفرد هو الدعاء لولاّة الأمور بالسمع والطاعة. أما الثانية، فهي مدرسة الإسلام السياسي الاحتجاجي، الذي يوصف في الأدبيات القديمة بالخوارج، والآن في شكل جماعات متفرعة عن الإخوان المسلمين، اضطرت تحت ضغط الواقع إلى تغيير أفكارها من حاكمية تجري تكفيرها على الجميع، مسلمين وغير مسلمين، عدا المنتمين للفرقة الناجية، إلى مناورة التعيش مع الآخر.

الهند.. مقر جماعة التبليغ يتحول إلى بؤرة لفايروس كورونا

تخوض السلطات الهندية حربا ضد تفشي فايروس كورونا في البد المكتظ بالسكان، لكنها تخوض بالتوازي حربا ضد الجماعات الدينية التي تصر على عقد اجتماعاتها في هذا الظرف الاستثنائي في البلاد وفي العالم. جماعة التبليغ التي تأسست في الهند وانتشرت في الكثير من الأقطار الإسلامية، تحدت الحظر الذي أقرته السلطات وعقدت لقاءات في حي تحول إلى بؤرة لتفشي الفايروس ما حمل السلطات على شن حملة على الجماعة.

نيودلهي – أغلقت الهند مقر جماعة دعوية إسلامية الثلاثاء وأمرت بالتحقيق في اتهامات بأنها عقدت لقاءات دينية يخشى المسؤولون من أن تكون تسببت في إصابة العشرات بفايروس كورونا.

وسجلت الهند 1251 حالة إصابة بفايروس كورونا المستجد توفي 32 منهم، وهي أرقام تبدو ضئيلة عند مقارنتها بالولايات المتحدة وإيطاليا والصين. لكن مسؤولين بقطاع الصحة يقولون إن الهند، وهي ثاني أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان، تواجه زيادة هائلة يمكن أن تستعصي على نظام الصحة العامة الضعيف.

ومن بين بؤر التفشي الرئيسية التي أعلنت عنها حكومة نيودلهي، حي مسلم تتمركز فيه جماعة التبليغ، التي تأسست قبل نحو 100 عام، بعد أن أكدت التحاليل إصابة العشرات بالفايروس ووفاة ما لا يقل عن سبعة أشخاص.

وقالت السلطات الهندية إن الناس ظلوا يترددون على مقر جماعة التبليغ في مبنى يضم خمسة طوابق بحي تشقه الأزقة الضيقة المتعرجة، قادمين من مناطق أخرى من البلاد وخارجها، وإن الجماعة أقامت أيضا مناسبات لإلقاء الخطب، على الرغم من أوامر الحكومة بشأن التباعد الاجتماعي.

وكان مبنى الجماعة يكتظ بالمئات من الأشخاص حتى مطلع الأسبوع عندما بدأت السلطات في إخراجهم لإجراء الاختبار. ووصلت حافلات إضافية الثلاثاء لنقلهم إلى مراكز الحجر الصحي في جزء آخر من المدينة.

وقالت إدارة المدينة في بيان "يبدو أن بروتوكولات التباعد الاجتماعي والحجر الصحي لم تطبق هنا". وأضاف البيان "انتهك المسؤولون هذه الشروط ورُصدت الكثير من حالات الإصابة... بهذا الإهمال الجسيم تعرضت أرواح الكثيرين للخطر... لم يكن هذا سوى عمل إجرامي".

وتحاول السلطات تعقب تحركات أعضاء جماعة التبليغ في أعقاب الاجتماعات في دلهي والأشخاص الذين كانوا على اتصال بهم.

وذكرت وسائل الإعلام أن هناك أيضا أعضاء بجماعة التبليغ من ماليزيا وإندونيسيا وتايلاند ونيبال وميانمار وقرغيزستان والسعودية. وقال المدير العام لوزارة الصحة الماليزية في مؤتمر صحافي في كوالالمبور إنهم يحققون في وجود ماليزيين في اجتماع دلهي.

التجمع في ظروف كورونا عمل إجرامي

وقال نور هشام عبدالله "من الواضح أن الخطر سيكون كبيرا إذا كانوا قد حضروا اجتماع دلهي".

وفي محاولة لوقف انتشار الفايروس، تم فرض إجراءات العزل العام في الهند، التي يزيد عدد سكانها عن 1.3 مليار نسمة، لمدة 21 يوما تنتهي في منتصف أبريل الجاري، لكن عشرات الآلاف من المهاجرين غير العاملين يفرون إلى الريف، ما يدمر فعالية القيود.

وقال مشرَف علي، وهو أحد مديري مركز التبليغ في دلهي، إن الجماعة حاولت الحصول على مساعدة الشرطة وإدارة المدينة للتعامل مع الأشخاص الذين يتوافدون، لكن قيود العزل العام زادت من صعوبة الأمر.

وقالت جماعة التبليغ في بيان "في ظل هذه الظروف القاهرة، لم يكن هناك خيار سوى استيعاب الزوار الذين تقطعت بهم السبل مع اتخاذ الاحتياطات الطبية المفروضة إلى حين يصبح الوضع ملائما لتحركهم أو إلى حين تتخذ السلطات ترتيباتها".

واستضافت جماعة التبليغ، وهي واحدة من أكبر الحركات الدعوية في العالم، تجمعا الشهر الماضي بمسجد كبير على مشارف العاصمة الماليزية كوالالمبور، وتبين أنه كان سببا في المئات من الإصابات بكورونا في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا.

وفي باكستان، ألغت الجماعة تجمعا في ضواحي مدينة لاهور الشهر الماضي، لكن لا يزال 1100 شخص موجودين في مبان للجماعة. وقالت ياسمين رشيد وزيرة الصحة في إقليم البنجاب الباكستاني لتلفزيون جيو هذا الأسبوع إن التحاليل أثبتت إصابة 27 شخصا على الأقل بالفايروس.

ويشار إلى أن جماعة التبليغ هي جماعة إسلامية تدعي أنها خصصت نفسها للدعوة والزهد في الدنيا، تأسست في العام 1926 وكان مؤسسها محمد إلياس الكاندهلوي (1885 – 1944) أول أمير لها حتى وفاته، ثم خلفه ابنه محمد يوسف ثم إنعام الحسن.

> جماعة التبليغ والدعوة أقامت مناسبات لإلقاء الخطب الدينية على الرغم من أوامر الحكومة الهندية بشأن التباعد الاجتماعي

وبدأت الجماعة دعوتها في الهند ثم انتشرت في معظم البلاد العربية والإسلامية، ولها حضور كثيف في باكستان حيث ذاع خبر مؤتمرها الذي عقدته في يوم 11 مارس الماضي، وأثار امتعاضا ورفضا واسعين في الهند وفي باكستان، بالنظر لما مثله احتشاد أكثر من 100 ألف إسلامي من جماعة التبليغ في مقرها، وهو مجمع من المساجد والمعاهد الدينية الإسلامية، من خطر متصل بإمكانية تفشي الفايروس بالرغم من تحذيرات السلطات.